مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الاول - المجلد الثاني والخمسون

١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م

إبراهيم السّامرائيّ
بين المنهجين التاريخيّ والمقارن

أ . د . نعمـــة رحيم العزاوي
كلية التربية ــ جامعة بغداد

الملخص :

إبراهيم السامرائيّ المولود فـــي مدينـــة العمـــارة عـــام ١٩٢٣ والمتوفى في عمّان عام ٢٠٠١ ، لغويّ عراقيّ كبير ، ذاعت شهرته في البلاد العربية ، وترك عشرات الكتب وعشرات البحوث .

يعد السامرائيّ أول لغوي عربيّ طبق فـــي دراســـاته وكتبـــه المنهجين التاريخي والمقارن ، وسجّل نتائج تعد جديدة في البحث اللغويّ الحديث .

وسبب شغف السامرائيّ بهذين المنـــهجين ، وســـعيه الحثيـــث لتطبيقها في أعماله أنه درس في السوربون ، ووقف هناك على ما عنـد الغربيين عامة والفرنسيين خاصة من دراسات وبحوث أقيمـــت علـــى المنهج التاريخي او المقارن ، فرغب في أن يفيد فـــي دراســـته للغـــة العربية من هذين المنهجين ، وأن يكشف عـــن كثـــير مـــن الظواهـــر اللغوية ، التي وقف اللغويون العـــرب القدمـــاء شـــبه عـــاجزين عـــن تفسيرها ، أو أنهم فسرّوها تفسيراً يقوم على الحدس والتخمين ، فابتعدوا بذلك عن الصواب .

ومما زاد معرفة ابراهيم السامرائيّ بالمنهجين التاريخيّ والمقارن أنه درس اللغات الجزرية كالعبرية والآرامية والأكدية ، وتعد معرفة هذه اللغات أو بعضها مهمة للذي يريد أن يدرس اللغة العربية دراسة تاريخية أو مقارنة .

وقد عرض هذا البحث أمثلة من تطبيق السّامرائيّ المنهجين المذكورين على اللغة العربية ، وتعد هذه الأمثلة وغيرها مما أغنى به السامرائيّ البحث اللغويّ الحديث ، كما تعد اضافة الى الفكر اللغويّ العربيّ القديم ، وتصحيحا لبعض وما وقع فيه اللغويون العرب من أوهام ، أو ما جانبهم التوفيق في تفسيره .

مدخـــل :

ولد ابراهيم السامرائي في مدينة العمارة سنة ١٩٢٣ ، وتلقـــى فيها علومه الأولية ، ثم دخل دار المعلمين الابتدائية في بغداد ، وتخـرج بها معلما في المدارس الابتدائية ، ودخل دار المعلمين العاليـة ، وبعـد التخرج مارس تدريس العربية في المدارس الثانوية ، وشاء له تفوقه أن ينتظم ببعثة وزارة المعارف آنذاك الى السوبورن ، فحصل منها علـــى شهادة الدكتوراه ، وعاد الى الوطن عام ١٩٥٦ ليعين في كلية الاداب .

لقد ظل يعمل في التدريس الجامعيّ ، وفي البحـــث والتـــأليف والتحقيق حتى وافاه الأجل عام ٢٠٠١ ، فكان له تراث غزير ، يشهد له بالتدقيق والتحقيق ، ويفصح عن أصالة تفكيره ، وتطلعه الـــى التجديـد والاضافة في مضمار دراسة العربية .

(١)

المنهج التاريخي والمنهج المقارن

يعرف المنهج التاريخي في دراسة اللغة بأنه المنهج الذي يبحث لغةً ما في مكان محدد ، في مداخل زمنية مختلفة لبيان التغيرات التـــي لحقتها في اثناء تلك المراحل .[١]

ومعنى ذلك أن المنهج التاريخي يُعنى بدراسة التغـيرات التـي تقتري لغة ما ، أو مجموعة من اللغات عبر مسيرتها ، ومظـاهر هـذا التغير وأسبابه ونتائجه . ومعنى ذلك أن هذا المنهج ينطلق من المفـهوم القائل بحركة اللغات ، وفاعلية العوامل المؤثرة في بنيتـــها والعنـاصر المكونة لها ، من أصوات ومفردات وتراكيب ودلالة . ومن هنا تكـون وظيفة عالم اللغة الذي يتبع المنهج التاريخي ، هي الكشف عن طبيعـــة

---

[١] مدخل الى علم اللغة (د. محمد حسن عبد العزيز) : ١٤٦ ، القاهرة د . ت .

هذا التغير ، والقوانين التي تكمن وراءه ، أو تؤدي اليه[٢]. وان التغير اللغوي من أهم الافكار التي تمخض عنها علم اللغة الحديث ، وان ظهور المنهج التاريخي مرتبط بظهور هذا المفهوم في الدراسة اللغوية ، إذ هو منهج قائم على تتبع مظاهر هذا التغير في لغة ما ، ومحاولة تفسيرها ، والكشف عن العوامل المؤدية لها .

أما المنهج المقارن فيعد جزءاً من المناهج التاريخي في دراسة اللغة ، ((وهو يتميز من المنهج التاريخي في عمومه بأنه يركز على بحث الظاهرة اللغوية في اكثر من لغة ، ويركز بشكل خاص على بحث الظاهرة في اللغات التي تنتمي الى أصل واحد ، كاللغات السامية ، أو الحامية أو الهندية الاوربية))[٣] .

والهدف من المنهج المقارن ((التأصيل التاريخي كأن يستدل على قدم الظاهرة بالتماسها في أخواتها ، أو حداثتها بتفرد اللغة المعنية بها ، من بين أخواتها بحسب تأريخ حياة تلك اللغة))[٤] .

فالمنهج المقارن اذن يشترط اتحاد الأرومة في اللغتين الموازن بينهما . وكما يتناول المنهج التاريخي عناصر اللغة كافة ، كذلك يفعل المنهج المقارن ، اذ يبحث عن الاصوات والمفردات والتراكيب والدلالة ، ويفسر ما عرض لهذه العناصر من ظواهر مختلفة في لغة معينة ، في ضوء ما حصل لها في أخواتها اللائى ينتمين معا الى أصل واحد .

---

[٢] مناهج البحث اللغويّ بين التراث والمعاصرة (د . نعمة رحيم العزاويّ) : ١٥١ ، منشورات المجمع العلميّ (بغداد) ٢٠٠١ .

[٣] المستشرقون والمناهج اللغوية الحديثة (د . اسماعيل عمايرة) : ٤١ الزرقاء ١٩٩٢.

[٤] نفسه .

لقد كان لدراسة ابراهيم السامرائي في جامعة غربية هي السوربون ، فضل الاطلاع على هذين المنهجين وسواهما من مناهج البحث اللغوي الحديثة التي تعد من ثمار الدرس اللغوي الغربي في هذا العصر . وكان لمعرفته باللغات السامية أثر كبير أيضا في ميله الى تبني المناهج الحديثة ، ودراسة العربية في ضوئها .

لقد أدرك السامرائي أن المنهج التاريخي يستطيع أن يفسر لنا كثيراً من الظواهر اللغوية التي ظل بعضها غامضاً على اللغويين العرب ، وأما بعضها الآخر فقد وصلوا في تفسيره الى آراء ليست مقنعة . وأدرك السامرائي أيضاً أن حاجة دراسة العربية الى المنهج المقارن أمسّ واكثر إلحاحاً ، اذ كان يرى أن دراسة أي لغة في إطار ذاتها ، أو بمعزل عن أفراد فصيلتها ، يورث تلك الدراسة قصوراً ، ويقعد بها عن الوصول الى التفسير العلمي لكثير من ظواهرها . ولذا كان السامرائيّ دائم الحث للغويين العرب المعاصرين على الافادة من هذين المنهجين ، ولا سيما المنهج المقارن ، اذ قال : ((ولفهم العربية الفهم الصحيح ، وحل كثير من غامضها ، ينبغي أن يستفيد هذا الحل من المقارنات بغيرها من اللغات التي تكون مع العربية مجموعة أو أسرة ، لها صفاتها المعينة التي تميزها عن (كذا) غيرها من المجاميع اللغوية))[٥] . وقال أيضا : ((ولعلنا نفيد فائدة عظيمة في فهم العربية اذا اتبعنا هذا الطريقة المقارنة التاريخية ، وذلك بدراستها بالنظر الى غيرها من اللغات التي تضمها المجموعة السامية للغات ، وبهذه الطريقة نستطيع فهم كثير مما استغلق على علماء العربية الأوائل ، وما وقعوا فيه من أوهام . أقول الأوائل لأن لغتنا ما زالت تدرس على المنهج الذي

---

[٥] دراسات في اللغة (د . ابراهيم السامرائي) : ١٥٨ ، بغداد ١٩٦١ .

سنه هؤلاء العلماء من لغويين ونحاة ، ومازلنا نعوّل عليهم في دراستنا الحديثة))[٦] .

وكان ابراهيم السامرائي يعد معرفة اللغوي العربي المعاصر باللغات السامية شرطاً مهما في ثقافته ، وأداة لا يستغني عنها لفهم العربية ، ومعرفة كثير من الظواهر التي أعزتها ، وسجلتها كتب النحو واللغة . قال : ((ومن أجل هذا فالعلم بالساميات وسيلة مفيدة لفهم العربية ، ولا يمكن فهم الصفات التي تميز العربية عن (كذا) غيرها من اللغات ، إلا بالرجوع الى تلك اللغات التي تتصل بالعربية اتصال النسب))[٧] .

لقد كان ابراهيم السامرائي إذن من أوائل اللغويين العرب المعاصرين الذين أفادوا من مناهج البحث اللغوي الحديث ، ودرسوا العربية في ضوئها ، فوصلوا من دراساتهم الى آراء ناضجة ، صححت بعض أوهام القدماء ، وحلت كثيراً مما كان مستغلقا من ظواهر العربية في الأصوات والمفردات والتراكيب .

فالذي يطلّع على كتابه (دراسات في اللغة) الذي صدر عام ١٩١٦ ، يجد أنه كتاب رائد في هذا المضمار ، وأنه حافل بكثير من المعالجات العلمية القائمة على أساس المنهجين التاريخي والمقارن . ولابد لي من الاشارة هنا الى أن اهتمام السامرائي بالمنهج التاريخي جعله من أوائل اللغويين العرب الذين نبهوا على ما طرأ على العربية في هذا العصر من ظواهر ، كان سببها مواجهة الحضارة الحديثة ، والاحتكاك باللغات الأجنبية ، فخص جانبا من دراساته بنتائج رصده مسيرة العربية في هذا العصر ، والتنبيه على ما جدّ فيها من الفاظ

---

[٦] نفسه : ١٦٠ .

[٧] نفسه .

وتراكيب ، اعتمدت في ابتداع بعضها على وسائلها الذاتية في النمـــو ، واعتمدت في الوصول الى بعضها الآخر على وسائل من خارج ذاتــه ، قوامها النقل والترجمة والتعريب .

وصفوة القول أنه كان لعناية ابراهيم السامرائي فـــي دراســاته اللغوية بالمنهجين التاريخي والمقارن فضل كبير على العربيـــة ، وقــد تجلى هذا الفضل في ثلاثة اتجاهات : الأول تصحيح أوهام الدارســـين القدماء في تفسير بعض الظواهر اللغوية التي لم تحسن مصادرنا اللغوية والنحوية معالجتها ، ولم تصل بشأنها الى الرأي العلمي السديد . والثاني رصد حركة العربية المعاصرة ، ومراقبة ما طرأ عليها ، أوجــدّ فيــها بفضل وسائلها الذاتية في النمو حيناً ، وبفضل استعانتها باللغات الأخرى حيناً آخر ، اذ لم تحجم عن أن تقترض من غيرها ما يسد فيها نقصــاً ، أو يلبي لها حاجة جديدة . والثالث تتبع ما عرض للمفـــردات العربيـــة خلال الزمن من تغير في المبنى والمعنى ، وذلك من خـــلال معجميـــن كبيرين سجل فيهما طائفة كبيرة من المفردات التي استعملها المتنبي فـــي شعره ، وطائفة اخرى من المفردات التي استعملها الجاحظ في نـــثره . فقد تابع أصول هذه المفردات ، والمعاني التي استعملت فيها أول مـــرة ، وما آلت اليه في شعر المتنبي ونثر الجاحظ ، وما انتهت إليه في العصر الحديث .

(٢)

بعض تطبيقات المنهجين عند السامرائيّ

سأحاول في هذا المقال الموجز أن ابيّن بعض ما قدره السامرائيّ من آراء في بعض مسائل اللغة ، اعتماداً على المنهجين التاريخي والمقارن .

لقد عالج ابراهيم السامرائيّ ظاهرة التثنية في العربية ، ووجد أنها من الظواهر اللغوية التي ينبغي الوقوف عندها ، والاستعانة على تفسيرها بالمنهجين المقارن والتاريخي ، وقد فعل السامرائي ذلك منذ وقت مبكر من النصف الثاني من القرن المنصرم .

فحين نظر السامرائي في كتب النحو واللغة ، لم يجد فيها من موضوع التثنية الا الشيء اليسير ، الذي لا يكشف عن حقيقة هذه الظاهرة ، ولا يوصل منه الى رأي علميّ قيّم .

وبعد أن بحث السامرائي ظاهرة التثنية في العربية بحثا مقارناً ، قرر أنها ((ظاهرة لغوية وجدت من اللغات السامية واللغة اليونانية والسنكريتية ، ولها آثار في اللغات الجرمانية))[٨]. بل انه ذهب الى أن هذه الظاهرة عربية قبل أن تكون سامية.[٩]

فكلمة (اثنان) من حيث هي اسم لعدد ، واسم لأحد أيام الأسبوع ، من الكلمات السامية المشتركة ثم أشار السامرائي الى أن لهذه الكلمة مفرداً تخلى عنه الاستعمال هو (ثن) ، وهو كما ترى

---

[٨] دراسات في اللغة : ٦١ .

[٩] نفسه .

ثنائي ، وربما استعين على نطقه بألف الوصل ليكون على ثلاثة أحرف ، وحمل عليه لفظ المؤنث فقيل (ثنتان) . ويبدو أن العربية استغنت بالواحد والأحد عن (ثن) او (اثن)[١٠] .

وذهب السامرائيّ الى أن هذه اللفظة في العبرية (شنا يم) للمذكر ، و (شتايم) للمؤنث ، وفي الأكدية (شين) للمذكر و (شتين) للمؤنث ، وفي الحبشية (سنوي) و (سانيت) ، أما في الآرامية فيكون اللفظ (ترين) للمذكر و (ترتين) للمؤنث .[١١]

وتابع السامرائي منهجه المقارن في بحث ظاهرة التثنية في العربية ، فقال إن هذه الظاهرة لم تبرز البروز الواضح إلا في العربية، فقد زالت تماماً من اللغة السريانية ، ولم يبق منها إلا خمس كلمات منها العدد (ترين) و (ترتين) وهما اثنان واثنتان اللذان صارا يوضعان قبل الاسم المراد تثنية فيقال مثلاً tremmam أي (رجلان) .[١٢]

ومما بقيت فيه التثنية في اللغات السامية أعضاء الجسم المزدوجة كما في (يدان) و (رجلان) ، وهناك في العبرية مثلا كلمات دلت على الجمع وجاءت على صيغة المثنى كما في (شمايم) : سماوات ، و(مايم) مياه ، وفيها كلمات دلت على المفرد وهي بصيغة المثنى كما في (صهورايم) أي الظهيرة [١٣].

ومعنى ما تقدم أن العربية من بين أخواتها الساميات قد احتفظت بالتثنية منذ أقدم عصورها حتى الآن .

---

[١٠] نفسه : ٦٢

[١١] نفسه : ٦٢ ، ٦٣ .

[١٢] نفسه : ٦٤ .

[١٣] نفسه : ٦٥ .

وبعد أن عالج السامرائي ظاهرة التثنية في ضوء المنهج المقارن عاد ليعالجها في ضوء المنهج التاريخي ، فرأى أن المثنى لم يكن ثـابت القواعد في العصور التي سبقت نزول القرآن الكريـم ، وفـي عصـر نزوله ((فهناك تردد وترجحٌ في صيغة المثنى نفسه وفي صيغة الفعـل الذي اسند اليه))[١٤]. فمن الآيات التي طابق فيها الفعل المثنى الذي سبقه قوله تعالى : (قد كان لكم آية في فئتين التقتا)) (آل عمـران ١٣) ، وقوله تعالى (فارتدا على آثارها قصصا) (الكـهف : ٦٤) . ومـن الآيات التي حزمت فيها المطابقة بين الفعل والمثنى الذي سـبقه قولـه تعالى : (فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه ورفع أبويه وخروا لـه سُجَّدا) (يوسف : ١٠٠) . ففي هذه الآية عقب على المثنـى بـالفعل (خروا) وهو مسند الى الجمع ، ولم تأت الآية (وخراً) على التثنية ، ولأن الفعل مسند لضمير الجمع جاءت الحال جمعاً (سُجّدا) . وقولـه تعالى : (وكلتا الجنتين آتت أكلها) (الكهف ٣٣) لـم تحصـل فيـه المطابقة ، إلا أن النحويين يتأولون (كلا) و (كلتا) مفرد وقد حمـل على اللفظ ، والحمل على اللفظ اكثر وأصح .[١٥]

ومن الآيات التي لم تحصل فيها المطابقة قوله تعالى : (هـذان خصمان اختصموا في ربهم) (الحج : ١٩) فقد أسند الفعل الى ضمير الجمع ولم يسند الى ضمير الاثنين ، ومثل ذلك قولـه تعـالى : (وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) (الحجرات : ٩) أي ان المطابقة غير حاصلة فقد أسند الفعل الى ضمير الجمع المذكـر ولكـن الضمير في الظرف هو ضمير المثنى .

---

[١٤] دراسات في اللغة : ٦٥ .

[١٥] نفسه : ٦٦ .

وقد خلص ابراهيم السامرائي بعد أن عرض النصوص السابقة وغيرها ((الى أن العربية القديمة حتى زمن القرآن وما بعد ذلك بقليل لم تكن تراعي المثنى من حيث ما يسمى في نظام تأليف الجمل Syntex وعدم المراعاة ربما جاءت من أن المثنى داخل في حيز الجمع ، وبذلك عومل في أمثلة كثيرة من القرآن الكريم كما ظهر من عرضنا للآيات ، غير أن العربية الفصيحة قد حافظت على المثنى في الفترة التي تبعت الفترة الاسلامية .

وحين تقدم النثر العربي ، ونشأ ما اصطلح عليه النقاد المحدثون بالنثر الفني ومن اجل ذلك قلّ أن نجد هذا التردد في الاساليب الكلامية في هذه الفترة بين التثنية والجمع))[١٦] .

وحاول السامرائي بعد ذلك أن يفسر المراب المثنى بالألف والنون في حالة الرفع وبالياء والنون في حالتي النصب والجر فاستعان على ذلك بالمنهج التاريخي ، فذهب الى أن بعض القبائل استعملت المثنى بصورة الالف في جميع حالات اعرابه ، وان قبائل اخرى التزمت الياء في جميع حالات الاعراب أيضاً ، ولعل الصورة الأخرى ــ كما يرى السامرائي ــ مما عرفته اللغات السامية في بعض ما أثر فيها من كلمات مثناة ، جاءت بالياء والميم أو الياء والنون .[١٧]

وقال السامرائي بعد ذلك : ((ثم لما أن درجت العربية في طريقها التطوري ، وآن لها أن تنسجم في لغة هي لغة القرآن والحديث ، اختص الاستعمال المثنى بالألف لحال الرفع والمثنى بالياء لحال النصب والجر)).[١٨]

---

[١٦] دراسات في اللغة : ٦٨.

[١٧] نفسه : ٧٠ .

[١٨] نفسه : ٧٢.

ولا نريد أن نناقش السامرائي في رأيه هذا ، فالهدف من هـــذا البحث مجرد عرض آرائه التي انتهى اليها نتيجة لاتباعه المنهج المقارن والمنهج التاريخي في معالجة بعض الظواهر اللغوية ، ومنها التثنية .

وحين عرض ابراهيم السامرائي لظاهرة (الجمع في العربيـــة) قال : ((الجموع في العربية من المسائل الصعبة ، والاكتفاء في شـــرح وبسط (كذا) هذه المسألة بما جاء في كتب اللغة والنحو غـــير محقـــق للغرض العلمي الذي تصبوا اليه الدراسات اللغوية الحديثـــة ، ذلـــك أن وضع علوم اللغة العربية وتدوينها وصيرورتها على هذه الصورة مـــن النضج ، لم يتيسر إلا في عصور متـــأخرة ،بالقيـــاس الـــى تاريخـــها الطويل))[١٩].

ومعنى ذلك أن هذا الموضوع لا يفهم على حقيقته ما لم ينظـــر اليه في ضوء المنهج المقارن والتاريخي ، وهذا ما فعله السامرائي فـــي بحث موضوع (الجمع في العربية) ، اذ قرر أن العربية تميزت بمـــا يعرف بجمع التكسير ، وخلت من ذلك اللغات السامية الأخرى ، عـــدا الحبشية التي ورد فيها شئ من هذا الجمع ، ذلك لأن ((قرابة الحبشـــية من العربية واضحة جلية بحيث يميل بعض الباحثين الى اعتبار الحبشية فرعاً من العربية))[٢٠].

وقد ذهب السامرائي أيضا الى أن جموع التكسير تمثل مرحلـــة بدائية من مراحل العربية ، ودليل ذلك أن تذكير هذا الجمع وتأنيثه ظـــل أمراً غير ثابت حتى عصر القرآن ، فالفُلْك عومل معاملة المفرد حينـــا فقال تعالى (فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون) (الشـــعراء:١١٩) وعومل معاملة الجمع حينا آخر فقال تعالى : (وترى الفلك مواخر فيه)

---

[١٩] نفسه : ٧٦ .

[٢٠] دراسات في اللغة : ٧٨ .

(النحل : ١٤) ، ولذا قال اللغويون انها تقع على الواحد وعلى الجمع [٢١] .

والنخل عومل معاملة المذكر في قوله تعالى : (كأنهم أعجاز نخل منقعر) (القمر : ٢٠) ، وعومل معاملة المؤنث في قوله تعالى : (والنخل باسقات لها طلع نضيد) (ق : ٢٠) . وقد انتهى السامرائيّ بعد عرض أمثلته لبعض صيغ جمع التكسير في العربية الى القول : ((ان جموع التكسير في عصر النبوة لم تصل حد القواعد المقررة التي تتبع نظاماً مضبوطا))[٢٢] . والقول : ((ان هذه الصيغ ــ في عصر القرآن ــ لم تكن مقررة مبنية على قواعد ثابتة فهي سماعية تخضع لمألوف المتكلم في الاستعمال المحلي))[٢٣] .

وقد علل السامرائي تعدد صيغ الجمع للاسم الواحد في العربية باختلاف اللهجات ، فكلمة (أسَد) تجمع على (أُسْد) بضم واسكان ، أو (أُسُد) بضمتين فاذا اشبع الضم في بعض اللهجات نشأ جمع جديد هو (أُسُود) . ومن أثر اللهجات كذلك في نشوء صيغة جمع جديدة للمفردة كلمة (صحراء) التي تجمع على (صحارَى) بالألف ، وقد تنطق بعض القبائل هذا الجمع بامالة الألف فيه ، فينشأ عن ذلك جمع آخر هو (صحاري) بالياء . ومن ذلك كلمة (درهم) التي جمعت على (دراهم) واشبعت الكسرة في نطق قبيلة أخرى ، فأدى هذا النطق الى نشوء جمع آخر للمفردة هو (دراهيم) ، وقل مثل ذلك جمع (مُطْغِل) على (مطافِل) و (مطافيل)[٢٤] .

---

[٢١] نفسه : ٨١ وينظر مصدره .

[٢٢] نفسه : ٨٢ .

[٢٣] نفسه : ٨٣ .

[٢٤] نفسه : ٨٢ ، ٨٦ .

ونتيجة للنظر التاريخي في ظاهرة (الجمع في العربية) ذهب السامرائي الى أن جمع التصحيح للمؤنث والمذكر ((أحدث عهداً من جمع التكسير وذلك لأنه يشير الى أن اللغة بدأت مرحلة جديدة تخضع فيها للقواعد المقررة متخلصة من الشذوذ وتعدد الألسنة))[٢٥].

ولا يسلم ابراهيم السامرائي بما يقرره النحويون من أن جمع المؤنث السالم هو ما زيد في آخره ألف وتاء فيرى أن ((ملاك الأمر فيه يحصل من الزيادة في طول الكلمة أو قل من المقطع الذي يضاف بإشباع الفتحة كما في (فاطمة) فنقول (فاطمات) اذ ليس للتاء في (فاطمات) وظيفة في صيغة الجمع مطلقا (كذا) كما جاء في قوله تعالى : (كأنه جمالة صفر) (المرسلات : ٣٣) وقد قرئت (جمالات) ، ومثله قوله تعالى : (وألقوه في غيابة الجب) (يوسف : ١٠) وقد قرئت (غيابات))).[٢٦]

ويمضي ابراهيم السامرائي في نظره التاريخي لظاهره الجمع في العربية فيرى أن جمع التصحيح للمذكر اختص بالعاقل في مرحلة لاحقة من تاريخ نشأته ، وانه قبل ذلك ، أي في بدء نشأته كان يستعمل للعاقل وغيره ، ومن بقايا مرحلة استعماله لغير العاقل احتفظت العربية بالفاظ العقود التي صيغت على جمع المذكر السالم وبضع الفاظ أخرى عدها النحويون ملحقة بجمع المذكر السالم هي (أرضون) و (أهلون) و (عالمون) . وجاء فيه كلمات ذات أصول ثنائية مثل (بنون) و (مئون) و (سنون) و (عضون)[٢٧].

---

[٢٥] دراسات في اللغة : ٩١ .

[٢٦] نفسه . وينظر مصدره .

[٢٧] نفسه : ٩٢ .

ومن نتائج المنهج التاريخي الذي طبقه السامرائي على ظاهرة الجمع بحثه مجيء جمع تصحيح المذكر بالواو والنون مرة واليـاء والنون أخرى وكان النحاة قيدوا الصورة الأولى بالرفع وقيدوا الصورة الثانية بالنصب والجر . ويبدو أن السامرائي مال الى القول بان صورة الياء والنون اقدم من صورة الواو والنون ، لمجيئها في العبرية بصورة الياء والميم ، مثل (شراشيم) بمعنى الجذور والاصول التي تلفظ في العربية (جراثيم) .

ولكن العربية افترضت لها ــ على عادتها ــ مفرداً هي (جرثومة)، كما في الأسطورة والأساطير . ومما جاء في العبرية من جمع بصيغة الياء والميم كلمة (سرافيم) التي هي جمع (سرف) وهم ملائكة . وجاءت صورة الياء والنون في الارامية مثل (دارين) وهي جمع (دارا) بمعنى (الدار) و (عبرين) جمع (عبرا) وهو الساحل والمعبر ، و(عترين) ومعناه الثروات .[٢٨]

لما تقدم يرى السامرائي أن صيغة الواو والنون في جمع تصحيح المذكر قد نشأت في العربية في حقبة لاحقة ، وكان سبب ذلك ان بعض القبائل نطقت هذا الجمع بالصيغة الجديدة ، فنشأت صورتان لهذا الجمع ، بسبب اختلاف اللهجات ، ومن شواهد ذلك الاسم الموصول (الذين) . الذي تحول من لهجة هذيل الى (الذون) بالواو والنون في حالة الرفع ، ومن شواهد هذه اللهجة ما روته كتب اللغة من قول الشاعر :

نحن الذون صبحوا الصباحا يوم النخيل غارة ملحاحا [٢٩]

---

[٢٨] دراسات في اللغة : ٩٢ ، ٩٥ .

[٢٩] نفسه : ٩٤ .

واستظهر السامرائي لرأيه هذا بقوله تعالى (ان الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى) (المائدة : ٦٦) فقال : ((ان من العرب من كان يلتزم الواو والنون في الجمع في جميع الأحوال كما التزمت (الذين) في كل الأحوال)) .[٣٠]

وهكذا وجدنا ابراهيم السامرائي يعالج ظاهرة الجمع بنوعيه (التكسير والتصحيح) في ضوء المنهجين المقارن والتاريخي فينتهي الى آراء قيمة وجديدة لم يعهدها البحث اللغوي القديم .

ومن نتائج تطبيقه المنهجي المقارن والتاريخي في دراساته اللغوية أنه نظر في عدد من مواد المعجم العربي في ضوء المنهج المقارن ، فوجد أن عدد من المفردات وضعت تحت جذور لا علاقة لها بتلك المفردات ، وما ذلك الا لعدم معرفة اللغويين ولا سيما اصحاب المعجمات منهم باللغات السامية . فكلمة (ترجم) مثلا جاءت تحت جذر (ر ج م) في حين أن (الترجمة جاءت من (ترجوم) ((وهذه تعني في العبرية الشروح والحواشي في أسفار العهد القديم باللغة الآرامية في القرن السادس قبل الميلاد وهو الوقت الذي حلت فيه الآرامية محل العبرية ، ونقلة الكلمة الى العربية فاكتسبت معنى النقل من لغة الى أخرى))[٣١]. وقال السامرائي أيضا عن كلمة (ترجم) : ((وبهذا فحشرها في مادة (رجم) العربية من باب الجهل بالأصول والسهولة المخلة ، ولو أن أصحاب المعجمات عرفوا اللغات السامية الأخرى لأفادوا ولوجدوا لهم مخرجا ، وقربوا بين الفعل الدخيل

---

[٣٠] نفسه .

[٣١] دراسات في اللغة : ١٦٢

وبين (كذا) مادة (رقم) التي تقرب منها في المعنى ، والتي تشير الى الكلمات المرقومة)) .[٣٢]

ومن نتائج نظر السامرائي في الموروث النحوي في ضوء النهج المقارن أنه ذهب الى ترجيح الرأي القائل إن أداة التعريف في العربية (الـ) هي الهمزة ، وليس الهمزة واللام وهو قول الخليل ، وليس اللام وحدها وهو قول سيبويه . واعتمد السامرائي في هذا الترجيح على أن أداة التعريف في العبرية هي الهاء ، ثم قال : ((ولنا أن نقول ربما حصل التعريف في الالف ويدلنا على ذلك ان اللام ل تنطق مع الحروف الشمسية ، وأن الهمزة تقترب من الاداة العبرية وهي الهاء . والهمزة والهاء سواء في العربية ف (أيا) و (هَيا) في النداء بمعنى ، وألا وهلا تخفيفاً وتشديداً كذلك))[٣٣] .

ومن نتائج نظر السامرائي في الموروث اللغوي في ضوء المنهج التاريخي تفسيره ما يسمى بلغة (الاستنطاء) عند تميم وقيس وأسد ومن جاورهم وهي لغة تقوم على ابدال (العين) في كلمة (أعطى) نوناً ، فقد قرر السامرائي أن أصل (أعطى) هو (أنّى) بتشديد التاء ، وفك الادغام في العربية وسواها من اللغات السامية يستدعي تعويض أحد الحرفين المتجانسين بالنون كثيراً وربما كان بحرف آخر كالياء والراء ، فيحصل من ذلك (أنتى) ثم تبدل التاء طاءاً فتصير (أنطى) [٣٤] .

وقد فسّر بعض الباحثين (الاستنطاء) في ضوء المنهج المقارن فرأوا أن الفعل (أعطى) في اللغات الجزرية بالنون ، فأعطى في

---

[٣٢] نفسه .

[٣٣] نفسه : ١٦٣.

[٣٤] نفسه : ٧٧ هـ (٨) .

العبرية (نتن) وفي السريانية (نتن) ويلفظ كالفعل العبري تقريباً . وفي العبرية الفعل (نطا) يستعمل في مثل قولهم (نطا يدو إلى) بمعنى : مدّيدة الى ، أي أخذ ، وهو المعنى المضاد لـ (أعطى) العربي ، والموافق لـ (عطا يعطو) أي أخذ وتناول . ومن هذا تبيّن لهؤلاء الباحثين أن النون أصلية في الفعل (أنطى) وهو الفعل الجزريّ القديم .[٣٥]

خاتمة

تلك هي لمحة من فكر إبراهيم السامرائي اللغويّ ، توخيت منها أن أشير الى تعويله في بحث العربية على المناهج الحديثة بوجه عام ، وعلى المنهجين التاريخي والمقارن بوجه خاص ، وأن طريقة بحثه هذه قد أعنت الدرس اللغوي الحديث بآراء علمية سديدة ، عُدت مظهراً من مظاهر تجديد الدراسة اللغوية ، وعُدّت كذلك إضافة الى البحث اللغويّ القديم ، وتصحيحا لبعض ما وقع فيه اللغويون العرب من أوهام ، أو ما جانبهم التوفيق فيه من تفسير الكثير من الظواهر اللغوية .

وما قدمت من أمثلة على تطبيق السامرائي للمنهجين التاريخي والمقارن في دراساته اللغوية ليس إلا شعاعاً من شمس ، أو صبابة من كأس ، ففي آثاره وكتبه المزيد الذي يمكن أن يجرد منه كتاب .

ولا يزال في فكر إبراهيم السامرائي اللغوي متسع لمزيد من الدراسات والبحوث التي تجلو قيمته العلمية ، وتنوّه بسبق صاحبه ، وأصالة آرائه في هذا الضرب من النشاط العلميّ في العصر الحديث .

---

[٣٥] مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة : ١٨٢